التأملات فى الفلسفة الأولى لديكارت

بقلم
الدكتور عثمان أمين

١ — مقدمة عن ديكارت وفلسفته

(ا) ديكارت هو « أبو الفلسفة الحديثة »: وأول من وصفه بهذا الوصف فلاسفة الألمان وعلى رأسهم « هيجل » و « شلنج » . ولقد أحدثت آراؤه فى الفلسفة والعلم هزة عنيفة : فقوضت مذهب أرسطو ، وقضت على علم القرون الوسطى ، وأيدت سلطان العقل وناصرت قضية الحرية ، وهيأت النفوس للثورة الإنسانية الكبرى .

وقد اشتهر ديكارت فى العصور الحديثة بأنه زعيم « المذهب العقلى » فى الفلسفة . وهذا المذهب عبارة عن القول بأن المشكلات الفكرية العامة التى تعنى الإنسان بما هو إنسان يمكن أن تُحَل بواسطة العقل الإنسانى ، ومن غير معونة من شئ خارج عن العقل : وكانت هذه « جوّانية » فى الفلسفة الغربية الحديثة .

وفلسفة ديكارت عُرِفت بأنها « فلسفة الأفكار الواضحة المتميزة » ، كما كانوا يسمونها فى القرن السابع عشر : فقد أرادت تلك الفلسفة أن تخلص الفكر من نير السلطات ، أياً كانت ، فلم تقبل دليلاً على الحق إلا البداهة العقلية ، أى بداهة العقل الذى يراه الفيلسوف « أعدل الأشياء قسمة بين الناس » ، وحظوظ الناس منه متساوية ، فلا فرق بين شعب وشعب ، ولا تفاضل بين جنس وجنس .

(ب) وقد كان لديكارت أكبر الفضل فى بناء صرح المذهب العقلى الحديث ، حين وضع قاعدته المشهورة « يجب ألا أقبل شيئاً قط على أنه حق ما لم يتبين لى ببداهة العقل أنه كذلك » ، ويجب ألا أحكم على الأشياء إلا بما يتمثله ذهنى بوضوح وتميز ينتفى معهما كل سبيل إلى الشك . وقد قيل إن ما يسمى فى الفلسفة باسم «الثورية الديكارتية» يتلخص فى القاعدة التى تتطلب البداهة فى كل معرفة وفى كل يقين ، لأنها إنما تدعو إلى رفض كل سلطة تحاول أن تفرض نفسها على التفكير ، ولا تقبل إلا حكم العقل الذى لا يرى للحقيقة مقياساً إلا البداهة والوضوح والجلاء .

وكثيرون من مؤرخى الفكر الحديث رأوا فى فلسفة ديكارت هذا الطابع العقلى الصريح الذى يجعل من ديكارت « أباً روحياً للثورة الفرنسية ، وفيلسوفاً انتصرت بفلسفته قضية البحث الحر وتأيد بها سلطان العقل » .

وكان لفلسفة ديكارت أعمق الآثار فى مختلف أنحاء العالم : ذاعت فى إنجلترا، وألمانيا، وهولندا ، وإيطاليا ، وفى غيرها من البلاد الأوربية ، إبّان القرن الثامن عشر . وتغلغل نفوذ الفيلسوف فى أبعد أصقاع الدنيا، حتى وصل إلى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين :

(ح) ديكارت ومحمد عبده : وقد تجلى أثر هذه الفلسفة عند الأستاذ الإمام محمد عبده فى السنوات الأولى من هذا القرن : فلا يخفى أن الدعوة التى نهض بها الإمام لإصلاح المجتمع الإسلامى عموماً ، وإصلاح العقلية المصرية خصوصاً ، إنما تقوم على اصطناع منهج ديكارت فى «الأفكار الواضحة المتميزة»، وفى تغليبه حكم العقل على أحكام الهوى والعاطفة ، وفى محاولته إدخال الدراسات المنطقية فى الجامعة الأزهرية ، وفى اصطناعه اليقين والبداهة معياراً لصحة الروايات أو تلفيقها .

ومن طريف ما يُذكر فى هذا المقام أننى عثرت فى مكتبة الأستاذ الإمام محمد عبده ، منذ أكثر من ربع قرن ، على جميع مؤلفات ديكارت فى نصوصها باللغة الفرنسية ، ووجدت على كثير منها تعليقات وهوامش بخط الإمام نفسه ، ومما استرعى نظرى آنذاك بصفة خاصة ، كثرة التعليقات التى كتبها الإمام على نص كتاب « التأملات » ، وخصوصاً على القسم الذى يورد فيه ديكارت الأدلة المعروفة لإثبات وجود الله . وأود أن أذكر فى هذا الصدد أيضاً أن الأستاذ الإمام قد أشار غير مرة، فى الدروس التى كان يلقيها فى « دار الإفتاء » ، إلى ما يمكن أن يستفاد من أدلة ديكارت العقلية لإثبات العقائد الدينية .

(د) وبالإجمال يمكن أن يقال فى فلسفة ديكارت إن روح تلك الفلسفة الجوانية ومنهجها فى التدرج من الشك إلى اليقين ، قد بقى كلاهما هادياً للذهن الإنسانى على مدى العصور . ولعل من فضل ديكارت على الإنسانية المفكرة أن أصبح واضحاً للعيان أن المثل الأعلى للوجود الإنسانى هو تحقيق وعى الإنسان لذاته ولمكانه فى العالم ، بحيث يردّ جميع آرائه إلى أفكار واضحة متميزة ، ويمتنع عن أن يقرر أو أن يعمل ما لم يكن معتمداً على أسباب صحيحة مقبولة لديه ولدى الناس جميعاً ، وبحيث يتحرى دائماً عن المسوّغ الأخير لمعارفه وأعماله . وهذا المعنى من معانى النظر الفلسفى هو المعنى الذى ينبغى أن نحرص كل الحرص على إذاعته وتعميمه ، حتى يتيسر للفلسفة أن تؤدى فى المجتمع رسالتها الجليلة . ويسر كل متتبع لتطور الأفكار فى المجتمع الحاضر أن يلاحظ أن مفهوم الفلسفة ورسالتها الحقيقية ، على نحو ما أراد لها ديكارت أن تكون ، قد برزا فى أيامنا هذه بروزاً لا يدع مجالاً لغموض أو إبهام فى أذهان المستنيرين : وليس أدل على هذا من أن الرئيس عبد الناصر ، حين أراد أن ينشر آراءه عن حقيقة وأهداف الثورة المصرية ، ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وجد أن « الفلسفة » هى خير ما يعبّر به عن تمام وعينا لأنفسنا ، وتعمقنا فى فهم بواعث أعمالنا ، دون الوقوف عند ظواهرها ، فاختار الفلسفة عنواناً لكتابه « فلسفة الثورة » .

٢ — سيرة ديكارت فى مؤلفاته :

كانت حياة الفيلسوف الفرنسى ديكارت، حياةً جوّانية فى صميمها ، للروح والفكر فيها المقام الأول : قضى الفيلسوف شبابه منقباً عن الموضوعات العقلية ؛ جادّاً فى درسها ، متعقباً المشكلات العلمية دائباً على حلها . وأنفق أخصب سنى حياته فى مختلف أنحاء هولندا ، طالباً ملاذاً مأموناً يستطيع فيه أن يفكر وأن يعمل فى خلوة وهدوء . وانتهى به الأمر إلى أن جازف بتلك الخلوة نفسها ، بل بحياته كلها ، حين قصد إلى بلاد السويد إجابة لإلحاح ملكة تريد أن

تخفف من أعباء الحكم بالوقوف على شئ من مبادئ الفلسفة .

وإذا كانت سيرة ديكارت قد تظهرنا على شخصية الفيلسوف ، فهى لا تطمع فى أن تفسر لنا عبقريته ومواهبه التى هيأته لأن يكون بطل الفكر الذى عرفه التاريخ الحديث .

ولد « رنيه ديكارت » فى ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ فى قرية « لاهى » بمقاطعة « التورين » فى فرنسا ، من أسرة من صغار الأشراف ، وكان أبوه مستشاراً ببرلمان « رِن » .

ويمكن أن نقسم حياة ديكارت إلى ثلاث فترات مهمة :

(ا) الفترة الأولى

فترة دراساته الأولى فى مدرسة « لافليش » ، حيث تتلمذ على اليسوعيين من سنة ١٦٠٤ إلى سنة ١٦١٢ ، فدرس اللغات القديمة والمنطق والأخلاق والرياضيات والميتافيزيقا .

(ب) والفترة الثانية

من سنة ١٦١٣ إلى سنة ١٦٢٩ ، قضاها فى السفر والارتحال : فقد قصد إلى باريس سنة ١٦١٣ ، والتقى بالرياضى « ميدورج » ، كما التقى بالأب « مرسن » صديقه وزميله منذ عهد التلمذة . وواصل دراسة القانون والطب فى جامعة « پواتييه » . وحصل على إجازات الحقوق من تلك الجامعة سنة ١٦١٦ . ثم التحق بالجيش الهولندى ، جيش «موريس دوناسو » ثم بجيش « مكسيمليان الباڤارى » . واتصل بالعالم الشاب « إسحق بيكمان » . وكتب رسالة فى الموسيقى سنة ١٦١٨ . ثم سافر إلى الدانمرك ، وشاهد تتويج الإمبراطور فرديناند الثانى فى فرنكفورت سنة ١٦١٩ . وقضى الشتاء فى « نويبورج » ؛ ووقعت له حينذاك أزمة من أزمات الشك ، ولم تنجل الأزمة إلا باكتشاف المبادئ المهمة كمنهجه ، فى ليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ . وقضى فترة تحمس ونشوة عقلية ، ونذر لله نذراً أن يحج إلى « نوتردام دولوريت » . والتحق بجيش دوق باڤاريا فى « أولم » ، وشاهد موقعة « الجبل الأبيض » سنة ١٦٢٠ . وفى السنة التالية دخل هولندا عن طريق موفوراڤيا وسيليزيا وبراندبورج وبحر الشمال ، وقضى بعد ذلك سنوات فى الارتحال والتنقل بين هولندا ، وفرنسا ، وسويسرا ، والتيرول ، وإيطاليا . وقام بفروض الحج إلى « نوتردام دولوريت » .

(ج) والفترة الثالثة

فترة مقامة فى هولندا وبقائه بها عشرين سنة (من سنة ١٦٢٩ إلى سنة ١٦٤٩) . وفى تلك الفترة الخصبة كتب أهم مؤلفاته :

١ ــ كتب باللاتينية « قواعد لهداية العقل » (نشر بعد وفاته) وكان فى ذهن ديكارت أن يحتوى الكتاب على ست وثلاثين قاعدة ، ولكنه تركه دون أن يتمه ، وعدل عن كثرة عدد القواعد لما يؤدى إليه من تعقيد ، وخطر له أن علم المنطق القديم إنما يصد الناس عن دراسته لذلك السبب ، وخطر له أن رؤساء الدول يستطيعون أن يحكموها بعدد قليل من القوانين ما داموا حريصين على مراعاتها مراعاة دقيقة . ويرى « ميبه » مع ذلك أن كتاب « القواعد » هو أعمق وأروع رسالة منطقية عرفتها الفلسفة فى جميع عصورها ، بلا استثناء لكتاب « الأرجانون » (الآلة) لأرسطو ، ولا لكتاب « المنطق » لهيجل .

(٢) وعكف ديكارت فى هولندا على النظر الفلسفى الصرف ، ثم وجه اهتمامه إلى دراسة علوم الطبيعة ، فحرر كتاباً سماه فيما بعد « العالم » أراد فيه أن يبسط رأيه فى كيفية نشوء العالم على مقتضى قوانين ميكانيكية صرفة : بدا للفيلسوف أن الله خلق المادة « عماء » خواء ، ثم رتبها وفقاً للقوانين التى لم يزل

يراعيها فى حفظ العالم . وعلى هذا النحو أراد ديكارت أن يوفق بين الإيمان بعقيدة الخلق ، وبين فكرة النشوء الحاصل وفقاً للقوانين الطبيعية التى لا يُستطاع بعد البرهنة عليها .

ولكن حادثا وقع فى ٢٣ يونية سنة ١٦٣٣ فكان له أثر فى حياة ديكارت الفكرية . ذلك أن هيئة التفتيش حكمت على العالم الإيطالى « جاليليو » بالمروق من الدين لقوله بدوران الأرض . وكان ديكارت نفسه يقول ذلك فى كتابه « العالم » فلما بلغه نبأ الحكم على « جاليليو » خاف أن ينشر الكتاب ، وكتب إلى الأب « مرسن » بأنه إذا كانت حركة الأرض باطلة ، فإن جميع أصول فلسفته باطلة كذلك ، لأن تلك الأصول تثبت الحركة الأرضية بما لا مجال فيه للإبهام . وقال أيضاً إنه لا يستطيع أن يفصل تلك النظرية عن حركة الأرض عن أجزاء كتابه دون أن يتعرض مذهبه كله للخلل . ولكنه لما كان لا يريد أن يصدر عنه قول يمكن أن يوجد فيه ما يخالف الكنيسة ، فإنه يفضّل أن يكتم ذلك القول على أن يظهر للناس فى صورة شوهاء .

(٣) وفى سنة ١٦٣٧ نشر ديكارت بالفرنسية كتابه المشهور « مقال فى المنهج » ، وهو مقدمة لثلاث رسائل هى « الآثار العلوية » و« البصريات » و« الهندسة » أما « المقال فى المنهج » فهو الرسالة الفلسفية الصرفة فى ذلك المجموع ، بين فيها تاريخ أفكاره ، وأوضح عن الخصائص المهمة لمذهبه الجديد فى نظرية المعرفة وفى الميتافيزيقا . أما الآثار العلوية والبصريات فقد أعطى الفيلسوف فيهما مثلاً أو نموذجاً لطريقته فى تفسير الطبيعة تفسيراً ميكانيكياً بحتاً . وفى رسالة « الهندسة » استكشف ديكارت الهندسة التحليلية التى ضم بها علم الجبر إلى علم الهندسة ودرجهما تحت علم واحد .

ولقد كان ظهور كتاب المقال فى المنهج بالفرنسية فتحاً جديداً فى عالم التأليف ، إذ كانت عادة الفلاسفة والعلماء حتى ذلك الحين أن يكتبوا بحوثهم باللغة اللاتينية ، فلما نهض ديكارت ونشر كتابه باللغة الفرنسية أدرك الناس لأول مرة كيف تعبّر الفلسفة عن معانيها باللغة التى يفهمها الجمهور من الشعب . والحق أن ديكارت كان قليل الثقة بالمتحذلقين وأهل الطنطنة والادعاء فى العالم ، ولذلك نراه منذ البداية ، فى باكورة مؤلفاته ، يوجه حديثه إلى ذلك الجمهور الأوسع من الناس الذين يحكمون فيما يعرض لهم من الأمور دون أن يحفلوا بما رآه أرسطو ولا بما قاله فلان أو علان . ويقول ديكارت موضحاً ذلك : « إذا كنت آثرت أن أكتب بالفرنسية — التى هى لغة بلادى — على أن أكتب باللاتينية ، التى هى لغة من قاموا على تعليمى ، فذلك لأنى آمل أن الذين لا يستخدمون إلا عقولهم فى حال فطرتها وصفائها ، سيقدرون آرائى خيراً من أولئك الذين لا يؤمنون إلا بما ورد فى كتب القدماء » .

ومن عجب أن كتاب « المقال فى المنهج » لم يُثر لدى الجمهور حين ظهوره إلا قليلاً من الملاحظات والاعتراضات ، فى حين أن الرسائل الأخرى العلمية التى تليه أثارت من الأسئلة والاستيضاحات ما اضطر ديكارت إلى النزول فى ميدان المناقشة الحادة مع كثيرين من المشتغلين بالرياضيات .

(٥) وفى سنة ١٦٤٤ نشر الفيلسوف كتاب « مبادىء الفلسفة » باللاتينية أيضاً . وفى هذا الكتاب عرض مبسط للفلسفة الديكارتية يسهل للناس فهمها والإلمام بها . وقد قام الأب « بيكو » فوضع للكتاب ترجمة فرنسية راجعها ديكارت ونشرت بباريس سنة ١٦٤٧ : وبعث ديكارت إلى مترجم الكتاب رسالة هامة جعلها بمثابة المقدمة للترجمة الفرنسية ، أوضح فيها الخلاف بين الفلسفة القديمة والفلسفة الجديدة ،

والميزات التى توجد فى فلسفته وفضلها فى تقدم المعارف البشرية تقدماً مطرداً غير محدود . وأهدى ديكارت « مبادىء الفلسفة » إلى الأميرة اليزابث . وكان فى نية الفيلسوف أن يجعل كتاب « المبادىء » فى ستة أجزاء : مبادىء المعرفة — مبادىء الأشياء المادية ، السماء ، الأرض ، النبات والحيوان ، الإنسان ، ولكنه لم يستطع إتمام الجزئين الأخيرين لقلة ما لديه من التجارب ، وقنع بالأجزاء الأربعة الأولى التى يشمل أولها الميتافيزيقية ويشمل ثانيها وثالثها ورابعها الفيزيقا المؤسسة على تلك الميتافيزيقا . فكتاب المبادىء ينقسم إذن أربعة أجزاء : الأول ، وعنوانه « مبادىء المعرفة البشرية » ، يحوى على التقريب ما يحويه كتاب « التأملات » ، لولا أنه بأسلوب آخر ، ولولا أن ما وضع فى الواحد مطولاً وضع فى الآخر مختصراً وبالعكس . والجزء الثانى وعنوانه « مبادىء الأشياء المادية » يبين ديكارت فيه لِمَ لمْ يعتبر الأجسام إلا مادة ممتدة طولاً وعرضاً وعمقاً ، ولِمَ لم يعتبر فى تغيراتها المتعاقبة إلا حركات خاضعة لبعض قوانين بسيطة جداً . وعنوان الجزء الثالث : فى عالم الشهادة ، وهو بحث فى الميكانيكا السماوية . يصف ديكارت فيه حركة الأرض والكواكب الأخرى حول الشمس . وعنوان الجزء الرابع « فى الأرض » ويفسر فيه ديكارت الثقل وظاهرة المد والجزر وخواص المغناطيس .. الخ وينفى الجذبة بين الأجسام ، لأن فكرة الجذبة فكرة مبهمة .

(٦) وكانت الأميرة إليزابث قد طلبت إلى ديكارت أن يكتب « رسالة فى انفعالات النفس ، فأجاب رغبتها ، ونشر الرسالة بالفرنسية سنة ١٦٤٩ . ورسالة الانفعالات ، مضافاً إليها رسائل الفيلسوف مع الأميرة ، تحتوى على أهم ما فى مذهبه الأخلاقى .

يحلل ديكارت انفعالات النفس واحداً واحداً ، ويعقب على كل تحليل بفصل فى وجه استخدام الانفعال والانتفاع به . ويرى فيلسوفنا أن الانفعالات والأهواء طبيعية ، وهى فى ذاتها حسنة ، وهو يخالف فى هذا ما ذهب إليه الرواقيون الذين زعموا أن الأهواء أمراض من أمراض النفس ، فينبغى محاربتها والقضاء عليها بتاتاً . وإذن فالانفعالات عند ديكارت ليست أشياء رديئة بل طيبة ، وفيها مصلحة للبدن والنفس جميعاً ، وإنما الذى يجب علينا أن نتجنبه هو انحرافاتها وسوء استعمالها .

والذى يسترعى انتباهنا فى « رسالة الانفعالات » هو اهتمام ديكارت اهتماماً ظاهراً بأن يستخدم تلك البحوث النفسية الفزيولوجية فى تشييد مذهب أخلاقى يتلخص فى السيطرة على الأهواء والعواطف . وربما كان هذا الجزء من أخلاقيات ديكارت هو أكثر أجزائها حدةً وطرافة . وقد كتب الفيلسوف إلى « شانو » بهذا الصدد يقول : « لا أكتم عنك أن الفكرة التى حاولتُ تحصيلها عن الطبيعة قد نفعتنى نفعاً عظيماً فى إقامة أسس يقينية فى الأخلاق » .

وقد كانت « رسالة الانفعالات » آخر مؤلفات ديكارت . ودعته الملكة كريستين ، ملكة السويد ، للسفر إلى استكهلم ، ليلقنها بنفسه مبادىء فلسفته ، ولكى يعلمها « السبيل إلى الحياة السعيدة مع الله ومع الناس » فقبل الدعوة بعد تردد منه وإلحاح من الملكة . وهناك مات فى ١١ فبراير سنة ١٦٥٠ وله من العمر ثلاث وخمسون سنة .

عرف ديكارت فى حياته جميع ضروب النصر والخذلان . والآن وقد أصبحت فلسفته إنسانية تتخطى حدود المكان والزمان ، فإنها تسجل من غير شك صفحة من أمجد الصفحات فى تاريخ الفكر الإنسانى .

٣ — تحليل التأملات فى الفلسفة الأولى

١ — تعريف بالتأملات :

« التأملات فى الفلسفة الأولى » من روائع المؤلفات الفلسفية على الإطلاق . وهى بلا ريب أهم أجزاء الفلسفة الديكارتية وأجدرها بالاعتبار . ونظرة إلى المسائل التى تناولتها ، والحقائق التى بينتها تقنعنا بأنها أوفى ما ألف الفيلسوف فى الميتافيزيقا بوجه عام ، وأبدع ما كتب فى النفس الإنسانية ، ووجود الله بوجه خاص ، كما يشير إلى ذلك النص الكامل لعنوان الكتاب : « تأملات فى الفلسفة الأولى ، وفيها يبرهن على وجود الله وخلود النفس .

نشر ديكارت « التأملات » سنة ١٦٤١ باللغة اللاتينية ، دون الفرنسية ، وكان قصده من ذلك كما يحدثنا هو نفسه أن يقصر كتابه على الخاصة دون العامة ، إذ أنه قد التزم فى شرح المسائل الميتافيزيقية سبيلاً قلّ سالكوه ، وبَعُد عن الطريق المألوف بعداً كبيراً .

ورأى ديكارت أن يقدم للتأملات برسالة إهداء « إلى العمداء والعلماء بكلية أصول الدين المقدسة بباريس » يسألهم فيها أن يؤيدوا آراءه ، ويبيّن لهم أن منهجه الجديد فى الفلسفة ، على الرغم مما بينه وبين منهج « المدرسين » من اختلاف عميق ، يستطيع أن ينصر العقيدة والدين ببراهين قاطعة من شأنها أن تخرس ألسنة الملحدين . ولكى يضمن أن يظفر كتابه بحسن القبول عند علماء اللاهوت المسيحيين ، أرسله قبل الطبع إلى صديقه الأب « مرْسِن » ليُطلع عليه مشاهير العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، أمثال « أرتو » و « جَسَنْدى » و « هويز » و « كاتروس » و « بوردان » وغيرهم . وتلقى مرْسِن من هؤلاء العلماء طائفة من الاعتراضات التى أوردوها على كتاب التأملات . وكتب ديكارت ردوده عليها ، وجمعت الاعتراضات والردود ، ونشرت فى ذيل الطبعة الثانية لكتاب « التأملات » سنة ١٦٤٢ . وفى سنة ١٦٤٧ نُشِرت للكتاب ترجمة فرنسية بقلم الدوق دو لوين ، وقد راجعها ديكارت وصححها بقلمه . وهذا مما يجعل الترجمة فى منزلة طبعة أصيلة .

ألف ديكارت كتابه هذا ليعرض على الخاصة مذهبه فى الميتافيزيقا عرضاً علمياً منظماً . ويلاحظ أن الفيلسوف كان يحيل من أراد الوقوف على جملة نظراته فى الميتافيزيقا إلى هذا الكتاب وحده ، دون سائر كتبه . صحيح أنه قد أورد بعض المسائل الميتافيزيقية فى القسم الرابع من كتاب « المقال فى المنهج » ولكنه عرضها هناك عرضاً سريعاً ومسها مساً رفيقاً لم يكن يقصد فيه إلى التعمق والاستقصاء . على أن هذا العرض نفسه لا يفهم حق الفهم إلا بالرجوع إلى التأملات . وصحيح كذلك أن الباب الأول من أبواب كتاب مبادئ الفلسفة يبحث فى أصول المعرفة الإنسانية ، وهو لهذا كان أدخل فى بحوث الميتافيزيقا أو الفلسفة الأولى . لكن هذا الباب أيضاً لا يتيسر فهمه جيداً إلا بعد قراءة التأملات أما كتاب البحث عن الحقيقة فهو محاورة نقدية بين أشخاص مختلفى الآراء . ولا ندرى على التحقيق ما قصد إليه ديكارت من كتابتها . وإذن فيجب على الباحث عن الميتافيزيقا الديكارتية أن يلتمسها أولاً فى كتاب التأملات الذى هو المرجع الأول فى هذا الباب .

٢ — الفلسفة الأولى :

والفلسفة عند ديكارت إنما تبدأ بالميتافيزيقا ، أى الفلسفة الأولى . والفلسفة عبارة عن دراسة الحكمة . والحكمة ليست هى التبصر فى الأمور فحسب ، وإنما هى أيضاً وعلى الخصوص معرفة نظرته كاملة لجميع ما يستطيع الإنسان أن يعرفه لتدبير حياته ، وحفظ صحته ، واختراع جميع الفنون . ولكن هذه المعرفة

الكاملة ليست فى المعانى التى يجدها كل شخص فى نفسه بدون تأمل ، ولا فى المعارف المكتسبة من التجربة ، والمحادثة ، والقراءة ، إنما هى المعرفة عن طريق العلل والمبادئ الأولى التى يُستنبط منها كل ما يستطاع معرفته . والمبادئ التى يتحدث عنها ديكارت هنا هى الميتافيزيقا عينها : فإننا إذا وضعنا الميتافيزيقا استطعنا أن نستنبط منها سائر ما عداها ، « رأيت أن وجود هذا الفكر هو المبدأ الأول ، واستنبطت منه المبادئ التالية : أن هنالك إلهاً هو خالق كل ما فى العالم . ولما كان هو مصدر كل حقيقة ، فإنه لم يخلق أذهاننا بحيث تكون عرضة للخطأ فيما تقرر من أحكام على الأشياء التى نتصورها تصوراً واضحاً جداً ومتميزاً جداً . تلك هى المبادئ التى اصطنعتها فى الأشياء اللا مادية أو الميتافيزيقية ، ومنها استنبطت بتمام الوضوح مبادئ الأشياء الجسمانية أو الفيزيقية ، أى أن هناك أجساماً ممتدة طولاً وعرضاً وارتفاعاً ، وأن لها أشكالاً وتتحرك على هيئات مختلفة » .

قد كان « المدرسون » يعرّفون الميتافيزيقا بما عرّفها أرسطو حين قال إنها « علم الموجود بما هو موجود » ، أى أنها العلم بالخصائص الجوهرية للوجود . لكن هذا التصور المدرسى للميتافيزيقا لايقبله ديكارت ، إذ أن المشكلة الكبرى عنده هى أن نتبين متى يسوغ لنا إثبات الوجود ، وبعبارة أخرى أن الميتافيزيقا الديكارتية إنما تهتم بالذات التى تعرف والتى تقرر الوجود أكثر مما تهتم بالموضوع الذى يمكن أن يُعرَف أو يكون موجوداً .

وما دام ديكارت لا يستطيع أن يحدد الميتافيزيقا من جهة الموضوعات التى تتناولها ، فلا بد من أن يميزها بعلامة ذاتية تحمل طابع الذات العارفة . وإذا كان الأمر كذلك فالميتافيزيقا عنده هى أشد العلوم يقيناً ، وهى العلم الذى ينبغى أن نستيقن من نتائجه قبل أن نستيقن من نتائج العلوم الأخرى . والذى يضفى على الميتافيزيقا يقينها ليس هو طبيعة موضوعها ، بل الطريق الذى يسلكه الذهن فى طلبها . ونحن نقرأ فى كتاب « القواعد » : « ليس أمام الجنس البشرى طرق مفتوحة للمعرفة اليقينية سوى طريق الحدْس البديهى والاستنباط الضرورى اللذين بينهما المنهج » .

والمنهج الذى يحدد ماهية الميتافيزيقا هو المنهج الذى وصل إليه الفيلسوف بملاحظة العمل الذهنى فى الرياضيات . فقد لاحظ أن فى الرياضيات استدلالات صحيحة لا نجدها فى غيرها ، وقرر أن من مرّن ذهنه على عمليات الرياضيات أصبح أهلاً للبحث عن الحقائق الأخرى ، لأن منهج الفكر واحد فى جميع الأمور .

وفى كتاب « القواعد لهداية العقل » و « المقال فى المنهج » بيان للمنهج الدقيق الذى يجب أن يتوخاه طالب الميتافيزيقا .

وإذن فالميتافيزيقا علم دقيق يمكن إثبات قضاياه بيقين رياضى . وقد صرح ديكارت فى الرسالة التى كتبها فى ١٥ أبريل سنة ١٦٣٠ أنه اهتدى إلى « السبيل إلى البرهنة على الحقائق الميتافيزيقية ببراهين هى أكثر بداهة من براهين الهندسة » . وهو يقول فى موضع آخر : « ثِقْ أنه ليس فى الميتافيزيقا شئ إلا اعتقد أنه واضح كل الوضوح للنور الفطرى ويمكن أن يبرهن عليه برهنة دقيقة » . وإذن فالميتافيزيقا هى علم يعادل فى يقينه علم الهندسة إن لم يزد عليه ، وهى أكثر يقيناً من الهندسة ، لأن طائفة كبيرة من الحقائق الميتافيزيقية يمكن اكتشافها قبل أن يرفع الشك عن حقائق الرياضيات » . ولهذا ظن الشكاك وغيرهم أن إثبات وجود الله أمر غير ممكن ، وكثيرون حتى يومنا هذا يظنونه مستحيلاً ، مع أن شأنه كشأن جميع الحقائق الميتافيزيقية ، إثباته ميسور جداً ، ويقينه أكثر من يقين براهين الرياضيات ... » . وإذن فالبراهين الميتافيزيقية أكثر يقيناً من البراهين الرياضية .

والميتافيزيقا عند ديكارت هى علم منهجه هو عين منهج الرياضيات ، بل إنها أكثر العلوم يقيناً ، لأنها من بين جميع العلوم الإنسانية الخالصة أكثرها إمكاناً للبرهنة العقلية . فوجود الله ، وطبيعة الذهن ، والمادة يمكن إثباتهما بدقة رياضية . زد على ذلك أن الميتافيزيقا يمكن أن يتعقلها جميع من يهتمون ببراهينها اهتماماً كافياً وينظرون فى أدلتها « بأذهان قد تجردت عن الحواس » . ومن أجل هذا لم ير ديكارت داعياً إلى مناقشة « التأملات » أو مراجعتها ، فما دامت تحتوى على برهنة كاملة للحقائق الميتافيزيقية فقد انتهى الأمر ولا حاجة إلى زيادة عليها فيما خاضت فيه من مسائل . وقد اعتقد ديكارت أن ميتافيزيقاه وحدها هى الميتافيزيقا الصحيحة ، وأنه لا حاجة بالناس إلى ميتافيزيقا بعدها ، وإن كان من الميسور لغيره أن يهتدى إلى براهينها ، وهو يقول : « أرى أن جميع من أنعم الله عليهم بنعمة العقل يجب أن يستعملوه قبل كل شىء فى محاولة معرفة الله ومعرفة أنفسهم ؛ وهذا هو الأمر الذى اتفقت عليه جمهرة الناظرين ، والذى وفقنى إلى أن أبلغ فيه ما يرضينى تمام الرضا » .

ولما كانت الميتافيزيقا الديكارتية تسيطر عليها مشكلة الوصول إلى اليقين ، فهى ليست نظرية فى وجود النفس والله والعالم فحسب ، إنما هى إعداد للمعرفة ، وللمعرفة العلمية على وجه الخصوص .

(ح) طريق التأملات :

ولنلق الآن نظرة على الطريق الذى سلكه ديكارت فى تأملاته .

خصص تأمله الأول لنظر ميتافيزيقى مداره البحث فى الضرورة العقلية التى تقضى بانتهاج سبيل الشك ، باعتباره تمهيداً للفلسفة . ولكى نفهم منهجه فى ذلك يجب أن نتبين الأسباب التى جعلته يدعونا إلى أن نصطنع الأناة ، ونتوقف عن الحكم ، ونرفض التصديق بما يُلقَى إلينا من أقوال وآراء حتى ما كان منها شديد الرجحان ، فلا نسلم بأن شيئاً من ذلك ما لم نتبين بالبداهة أنه كذلك : لأن بداهة العقل عند الفيلسوف هى معيار اليقين بمعنى أنها هى العلامة المميزة للمعرفة الصحيحة المبرأة من الخطأ والزلل .

ويلخص الفيلسوف تأملاته فيقول : « قدمتُ ، فى التأمل الأدلة ، الأسباب التى تجعل فى استطاعتنا أن نشك على العموم فى الأشياء جميعاً ، وعلى الخصوص فى الأشياء المادية ، على الأقل ما دمنا لم يتيسر لنا من أسس أخرى فى العلوم سوى ما تيسر لنا حتى الآن . غير أن شكاً عاماً كهذا ، إن لم يظهر نفعه أول الأمر ، له مع ذلك نفع عظيم جداً ، من حيث إنه يخلصنا من ضروب الأحكام السابقة ، ويمهد لنا سبيلاً ميسوراً جداً لكى تألف التجرد عن الحواس ، وأخيراً من حيث إنه يجعل من غير الممكن ، فى المستقبل أن نشك أبداً فى الأشياء التى قد نهتدى فيما بعد إلى أنها صحيحة » .

« وفى التأمل الثانى نجد الذهن يستعمل حريته الخاصة فيفترض أن جميع الأشياء التى يقع له عن وجودها أدنى شك هى أشياء معدومة ، لكن يتبين أن من الممتنع إطلاقاً حينئذ أن يكون هو نفسه غير موجود . وهذا أمر فيه كذلك نفع عظيم ، فإنه بهذا الوجه يتيسر له أن يميز الأشياء التى تخصه ، أى التى تخص الطبيعة الذهنية ، من الأشياء التى تخص الجسم » .

« لكن قد يتوقع بعض القراء منى أن أورد فى ذلك الموضع أدلة لإثبات بقاء النفس . ومن أجل ذلك أرى لزاماً علىّ ها هنا أن أنبههم إلى أننى حاولت ألا أكتب فى هذه الرسالة كلها شيئاً إلا ولدىّ عنه براهين دقيقة جداً . ولذلك وجدت نفسى مضطراً إلى اتباع ترتيب شبيه بالترتيب الذى يصطنعه أصحاب الهندسة ، وهو تقديم جميع الأشياء التى تتوقف عليها القضية التى نبحث عنها قبل استنتاج أى شىء منها » .

« وأول وأهم ما يُطلب للتحقق من معرفة بقاء النفس أن نكوّن عنها تصوراً واضحاً صريحاً ومتميزاً كل التميز عن جميع التصورات التى يمكن أن تكون لدينا عن الجسم : وهذا ماصنعته فى ذلك الموضع . ويطلب فضلاً عن ذلك أن نعرف أن جميع الأشياء التى نتصورها بوضوح وتميز صحيحة على نحوما نتصورها ؛ وهذا مالم أستطع إثباته قبل التأمل الرابع ويلزم أيضاً أن يكون لدينا عن الطبيعة الجسمية تصور متميز ، يقوم بعضه فى هذا التأمل الثانى ، وبعضه فى التأملين الخامس والسادس » .

« ويلزم أخيراً أن نستخلص من ذلك كله أن الأشياء التى نتصور بوضوح ونميز أنها جواهر متباينة ، مثلما نتصور الذهن والجسم ، هى حقاً جواهر متميز بعضها عن بعض فى واقع الأمر ؛ وهذا ما انتهيت إليه فى التأمل السادس ، ومما يؤيده أيضاً فى هذا التأمل نفسه أننا لا نتصورها إلا غير منقسمة ، ذلك أننا لانستطيع أن نتصور نصف أى نفس ، كما نستطيع أن نتصور النصف لأصغر جسم بين الأجسام ، وعلى هذا النحو نتبين أن طبيعتهما ليستا متباينتين فحسب بل هما متضادتان بوجه ما . ولم أزدْ على هذا القدر فى معالجة الموضوع فى هذا الكتاب : لأن فى ذلك مايكفى لإفهام الناس ، بدرجة من الوضوح لابأس بها ، أن فساد الجسم يقتضى فناء النفس ، ولملء قلوبهم بالأمل فى حياة أخرى بعد الموت ؛ وكذلك لأن المقدمات التى يمكن أن نستنتج منها بقاء النفس تعتمد على شرح الفيزيقا بأسرها : أولاً لمعرفة أن جميع الجواهر على العموم ، أى جميع الأشياء التى لايمكن أن توجد دون أن تكون مخلوقة لله ، غير قابلة للفساد بطبيعتها ، وأنها لايمكن أن تنقطع عن الوجود أبداً ، إلا إذا منع الله نفسه عونه عنها فأحالها إلى العدم ؛ ثم لملاحظة أن الجسم على العموم جوهر ومن أجل ذلك أيضاً لايفنى ؛ لكن الجسم الإنسانى ، من حيث هو مختلف عن الأجسام الأخرى ، ليس مركباً إلا من أعضاء على هيئة معينة ومن أعراض أخرى تشابهها .

أما النفس الإنسانية فليست كالجسم مؤلفة من أعراض ، ولكنها جوهر محض : فمهما تتغير جميع أعراضها ، ومهما تكن مثلا تتصور أشياء وتريد وتحس أشياء أخرى الخ .. فلن تصير شيئاً آخر ؛ فى حين أن الجسم الإنسانى يصير شيئاً آخر متى تغير شكل بعض أجزائه . ويلزم عن ذلك أن فنـــاء الجسم الإنسانى أمر ممكن ميسور ، أما ذهن الإنسان أو نفسه فباقية بطبيعتها » .

« وفى التأمل الثـــالث بينتُ ببعض الإسهاب فيما يلوح لى أهم دليل استخدمته لإثبات وجود الله . ولكنى لم أرد أن أستخدم فى هذا الموضع تشبيهات مشتقة من الأشياء الجسمية ، لكى أبعد أذهان القراء بقدر مافى وسعى عن استعمال الحواس والاتصال بها . ولذلك ربما بقيت هنالك مسائل كثيرة غامضة (أرجو أن أوضحها توضيحاً تاماً فى ردودى على الاعتراضات التى وجهت إلى الكتاب منذ فرغت من تحريره) ، ومنها المسألة التى أوردها فيما يلى : كيف ان فكرة موجود كامل إطلاقاً — وهى فكرة نجدها فينا — تشمل قدراً من الحقيقة الموضوعيـــة ، أى تشارك بالتصور فى قدر من درجات الوجود والكمال بحيث يلزم أن تصدر عن علة كاملة على الإطلاق ؟ وهذا ما أوضحته فى تلك الردود بإيراد التشبيه بآلة فى غاية البراعة والإتقان ترد فكرتهـــا على ذهن صانع ما ؛ فإنه كما أن ما لهذه الفكرة من إتقان موضوعى لا بد له من علة معينة إما أن تكون علم ذلك الصانع أو علم واحد غيره تلقى هو عنه تلك الفكرة ، فكذلك يمتنع بالنسبة إلى فكرة الله ، التى هى فينا ، ألا يكون الله ذاته علة لها » .

« وفى التأمل الرابع أقمتُ الدليل على أن جميع الأشياء التى تتصورها تصوراً واضحاً جداً ومتميزاً جداً هى كلها صحيحة ، كما أوضحت طبيعة الخطأ أو الباطل ، مما تلزم معرفته ضرورةً لتوكيد الحقائق السابقة ، ولفهم الحقائق التى تتلوها فهماً صحيحاً : لكن ينبغى أن يلاحظ أنى لا أنظر هنالك فى الخطيئة أى فى الخطأ الذى يُقترف فى طلب الخير والشر ، بل الخطأ الذى يقع فى الحكم وتميز الحق من الباطل وليس قصدى أن أتكلم هنالك فى الأمور التى هى من شأن الإيمان أو سلوك الإنسان فى الحياة ، بل فى الأمور التى تتصل بالحقائق العقلية والتى يمكن معرفتها بمعونة النور الطبيعى وحده » .

ويتحدث ديكارت فى التأمل الخامس عن ماهية الأشياء المادية ، ثم يعود إلى الحديث عن الله ووجوده ، وهو يستند إلى معيار البداهة ، فيرفض مرة أخرى أن يضفى على المادة من الخواص إلا الامتداد ، أى خاصة الجسم فى أن يكون ممتداً . ولا يقبل إلا الحركة فى المكان ، وينكر فى الوقت نفسه جميع « الصور الجوهرية » و« الصفات الخفية » وغيرها من الكائنات والمبادئ التى كان يتحدث عنها الفلاسفة « المدرسون » .

وقد نستطيع هنا أن نلاحظ أن « نيوتن » حين قال بمبدأ « الجاذبية العامة » قد أدخل فى العلوم ما يشبه تلك المبادئ الخفيـــة التى ذهب إليها علماء القرون الوسطى . وقد خُيّل إلى النـــاس أول الأمر أن العلم النيوتونى قد ظفر فى هذا السبيل بنصر حاسم ، ولكن منـــذ ظهور « أينشتين » قد صار العلم ديكارتياً من جديد ، كما قال بعض المعاصرين .

وينبغى ألا ننسى أن ديكارت عالم رياضى ، وأن المثل الأولى للبداهة عنده هو البداهة الرياضية . فهو ينظر إلى الفكرة الواضحة التى تكون فى أذهاننا عن الله ، فيجد أن شأنها كشأن فكرة المثلث . ومن ثم يعود إلى البرهنة التى قام بها فى التأمل الثالث وينقلها إلى هذا المستوى الفكرى الجديد ، منتهياً إلى القول بأن القضيتين : « مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين ، و« الله موجود » هما قضيتان متعادلتان فى اليقين .

وليس من الضرورى ، فى التأمل السادس ، أن نتابع ديكارت فى تفاصيل مذهبه . فهو يكتفى هنا ببسط النتائج العملية لما انتهى إليه . بعد أن بيّن أن النفس الإنسانية مستقلة عن البدن ، قرر أنها مع ذلك متحدة به اتحاداً وثيقاً ، وأن هذا الاتحاد أمر واقع تشهد به التجربة والمشاهدة ، وكل امرىء لا بد متنبه إلى أنه يجمع فى ذاته بين طبيعتين متباينتين ، جسمانية ونفسانية : وهذا أمر واقع لا سبيل إلى المنازعة فيه . ويختتم الفيلسوف تأملاته مبيناً أن الأدلة على وجود عالم المادة والأجسام ليست من المتانة والوضوح بمنزلة الأدلة التى تؤدى إلى معرفة النفس وإلى معرفة الله . ويقول ديكارت نفسه فى تلخيص التأمل السادس مايلى : « وأنتهى فى التأمل السادس بتمييز فعل الفهم من فعل المخيلة ، وأصف علامات هذا التميز ، وفيه أبيّن أن نفس الإنسان متميزة عن الجسم حقاً ، وأنها مع ذلك ملتئمة معه التئاماً ومتحدة به اتحاداً يجعلها وإياه شيئاً واحداً ، وفيه أبسطُ جميع ضروب الخطأ الناشئة من الحواس ، مبيناً الوسائل لاجتنابها ، وأورد أخيراً . جميع الأدلة التى يمكن أن يستنتج منها وجود المادية ، لا لأنى أرى لها فائدة كبيرة فى إثبات ماتثبته — أعنى أن العالمَ موجود وأن للناس أجساماً ، وما شابه ذلك من أشياء لم يشك فيها قط إنسان ذو عقل سليم ، بل لأن إمعان النظر فيها يطلعنا على أنها لم تبلغ من المتانة والبداهة مرتبة الأدلة التى توصلنا إلى معرفة الله ومعرفة النفس . وبهذا الاعتبار تكون الأدلة الأخيرة أوثق وأبيّن ما يمكن أن يقع للذهن الإنسانى من معرفة ، « وهذا كل ما قصدتُ إلى إثباته فى هذه التأملات الستة ، ومن أجل هذا أغفلت ها هنا مسائل أخرى كثيرة تكلمت عنها عَرَضاً فى هذه الرسالة »

إن لتأملات ديكارت آثاراً بعيدة المدى فى التاريخ . كانت آراء الفيلسوف بمثابة ثورة فكرية هائلة، بل كانت على التحقيق أكبر ثورة فلسفية عرفها الناس منذ أيام الفيلسوف اليونانى « سقراط » حتى عهد الفيلسوف الألمانى « كانط » . وقد جاءت المثالية الألمانية التى أبدعها « كانط » ، وكذلك المثالية « الكانطية الجديدة » (عند « فشته » و « شوپنهور ») موافقتين لبداية المثالية الديكارتية ، وإن كانتا قد اختلفتا عنها فى النتائج الواقعية التى انتهت إليها . ولقد رأى «شلنج» أن الطابع الذى يميز الفلسفة الحديثة هو الفصل بين « المتناهى » و « اللامتناهى» وأن ديكارت قد عبّر عن الثنائية تعبيراً علمياً ، وما الفلسفة النقدية إلا تحقيق تلك الفكرة التى بدأت بديكارت . ويبدو مفكرو الألمان اليوم ميالين إلى قبول نظرية ديكارت فى المعرفة ، وهم يجلّون الفيلسوف الفرنسى ، ويرون فيه مثال المفكر الصحيح العميق . ومن أشهر من تأثروا فى عصرنا هذا بفلسفة ديكارت الفيلسوف الألمانى « إدموند هوسرّل » . وهو نفسه يعترف فى مستهل كتابه « تأملات ديكارتية » بأثر ديكارت عليه ويقول بصدد مذهبه فى « الفينومنولوجيا » : « ربما صح أن نسمى هذا المذهب ديكارتية جديدة ، وإن كنا قد اضطررنا إلى أن نطرح على التقريب كل ما للديكارتية من فحوى معروف ، وذلك لأننا بسطنا بعض المسائل الديكارتية بسطاً قائماً بذاته » . ولا نزاع اليوم فى أن فيلسوفنا كان مصدر إلهام قوى لفلسفات الحرية التى ظهرت آثارها فى الأجيال اللاحقة فى الغرب والشرق على السواء .